سنسافر غدا

انتهينا من التصحيح وكان علينا أن نعود.. كانت منـازل دمـشق غاصـة بالضيوف بعد أن طفحت الفنادق بنزلائها، وكنا قد أرهقنا ميزانية عمتـي خـلال أسبوع ولم يعد من اللائق أن نطيل بقاءنا، قال أخي معتـصم: "سنـسافر غـدا" فصمت، وغيظ على عادة الإخوة وقال: "انك تفقدين الإنسان أعصابه، والتفت الى رفيقة وأضاف: "أنظري اليها! انها كالسكرى، تكلمينها فلا تـرد، وتـسير فـي الطريق وكأنها لا ترى الناس ولا السيارات..

وقاطعته دون أن أرد عليه:

-أريد أن أبقى لأغير جنسيتي.

-لماذا؟ أي شيء طلع برأسك الآن؟

-انها تفيدني، ان شئت سافر أنت ورفيقة فسأبقى أنا بضعة أيام أخرى..

-لماذا لم تفكري بالأمر منذ قدمنا؟

-بل فكرت والمعاملة في طريقها لتنجز، ولا أريد أن أتركها معلقة..

لم أستطع القول له بأنني خطبت وعلى وشك الزواج وأنني بحاجة لها مـن أجل ذلك، بل لم أكن أرغب أن أقحمه في أمري وأبدأ معه جدالا لا ينتهـي فيمـا يجب علي أن أفعل وما لا يجب.. ما أحمق الإخوة وهم يجعلون أنفسهم أوصـياء وحراسا أخلاقيين علينا ولو كانوا أصغر سنا، وأقل تجربة ومعرفة بالحياة! لم أكن أريد منه شيئا سوى أن يذهب ويتركني، انني أعرف مكامن سعادتي وأعرف كيف أختار رجلي، ولن أترك الأمر للمصادفة أو لإرادة أحد غيري. انها قصة حيـاتي وأنا مسؤولة عنها.. ولكن معتصم لم يقتنع وألح على سفري وقال وهـو يتـرك البيت متجهما:

-سأقطع بطاقات السفر على كل حال!

وتبادلت وأختي النظرات، كنت في ضيق وهم، ولكنني ما لبثت أن ابتسمت، اتخذت قراري، لا أريد أن أبرح دمشق ولن أبرحها..

لم ألبث أن انتقلت الى منزل صديقة لي كان زوجها مسافرا، وكان منزلهـا هي الأخرى غاصا بالضيوف بسبب المعرض الاّ أنه متسع.. ألحت علـي منـذ

قدومي أن أنزل في ضيافتها ولكنني كنت أفضل أن لا أثقل عليها، ولعل عـادتي هي التي سيطرت علي اذ كنت منطوية على نفسي، ولم يحدث في حيـاتي أننـي نمت في بيت غريب..

انها الشاعرة عزيزة هارون! عرفتها في اللاذقية وتوطـدت بينـي وبينهـا صداقة متينة. فالأدب يجمعنا بالرغم من فارق السن بيننا. وكنت موضع أسرارها، وأتعاطف مع ظروفها القاسية التي جعلتها تتزوج ثلاث مرات.. أحببتها لأن لهـا روح طفلة وبراءة طفلة، وكم كان فرحها لقبولي دعوتها أنا وأختي رفيقة! قلـت لصديقتي وأنا أمشط شعري أمام المرآة استعدادا للخروج..

-ان من أحبهم تبدأ أسماؤهم بحرف ع أخـي عـادل وصـديقتي عزيـزة، والرجل الذي اختاره قلبي عفيف..

ضحكنا.. كانت على طرف فراشها ترمقني في حنان:

-سعيد هذا الرجل الذي أحبك يا يسرى.. ولكنها لم تلبث أن أردفت في قلق:

-هل أنت واثقة منه؟ ان شباب دمشق لا يؤمن لهم..

ضحكت وقلت: "أنا صادقة الفراسة والحدس في معرفة الناس، ليس غرا فج العاطفة حتى لا يعرف ما يريد، والشاب الكفؤ لا يخدع أحدا ولا يتلاعب بعواطف الآخرين..

حين شارفت الساعة الرابعة أحسست بانفعال لذيذ يـثلج أطرافـي، وقبلـت صديقتي مودعة فضمتني متمنية لي السعادة ولكنها لا حظت شحوبي وهي تسوي لي خصلة ناشزة من شعري..

-ضعي قليلا من الأحمر على وجنتيك يايسرى!

سرت في الشارع المشجر على مهل، وحين وصلت الى المنعطف عبـرت الطريق سيارة عسكرية لم تلبث أن توقفت وبرز منها عفيف..

صافحني بحرارة، ثم استدار ليسجل شيئا ناوله للسائق وصرفه.. ولاحظـت للمرة الأولى كم هو نحيل، وأحسست بقلبي يذوب حنانا.. أمسك بيدي وقال:

-كنت في الجبهة وخشيت أن أتأخر. فابتسمت:

-لاحظت أنك على سفر من الطريقة التي جعكت بها سترتك من الخلف..

ضحكنا ثم قال لي:

-لم أنم ليلة البارحة، قرأت الجزء الأول من روايتك وبقيت الى ساعة متأخرة أفكر بها وبك ولكنني لم أنهها..

سألته عن رأيه بها وأنا أحاول جاهدة أن أخفي لهفتي وانفعالي لما يبديه من رأي..

-طرحت موضوعا بالغ الأهمية في حياتنا المعاصرة.. انها رواية رائعة، ولكنك تحتاجين الى خمسة أعوام لتعطيها أبعادها الكاملة من الثقافة التاريخية والإجتماعية لتصلي بها الى مستوى الأدب العالمي.. موقفك كأديبة يجب أن يحدد!..

-أنا لا أفبرك قصصا، أصف الحياة والناس عن تجربة واقعية، انني أتعلم من الحدث الذي تنسجه الحياة نفسها ولا أفرض رأيا على أحد!

-لن يكون لأدبك معنى ولا روح ان لم تحددي موقفك وتدافعي عنه بشجاعة.. انتظري خمسة أعوام، حتى تنضج ثقافتك!.. والأسلوب! ان أفضل أسلوب في رأيي لانتقاد العيوب الخلقية هو الإنتقاد اللاذع الساخر..

-سأتعلم منك هذا الأسلوب.. انني في الواقع جادة أكثر مما ينبغي ولا أملك القدرة على الحوار الساخر..

تحدثنا طويلا عن الأدب، عن الحوار فيما اذا كان من الأفضل أن يكتب بالفصحى أو اللغة العامية، ان آخر شيء كنت أتصوره أن أجد ضابطا يتحدث في الأدب ويستطيع أن يكون ناقدا أدبيا ممتازا!

قلت له ذلك فضحك: "غدا ستقرئين في مكتبتي الكتب التي قرأتها في الأدب والإقتصاد والفلسفة، ولكنها باللغة الفرنسية.

-أنا أعرف الفرنسية، وفي الإمتحان المقبل في حزيران، اخترت مادة الأدب الفرنسي بدل اللاتينية، ومطلوب مني ثلاث مسرحيات لدراستها..

-كل المسرحيات القديمة موجودة عندي، ولعلي ان وجدت وقتا لدي أن أساعدك في دراستها..

ما أجمل أن يتعثر الإنسان طويلا، ثم يهتدي فجأة الى انـسان يحمـل كـل المزايا التي يحلم بها وأكثر!..

هتف بنا صديق له صادفنا في المعرض:

-سأشتري لكما خاتمي الخطوبة، انها هدية تبقى مدى العمر..

كان سعيدا يعرفني على أصدقائه الذين نلتقي بهم مـصادفة فيهنؤونـا فـي حرارة ولهفة..

-انه الدكتور أنور نعمان!

-حقا! انني التقيت بزوجته الفرنسية في الحفل الذي أقيم لليونيـسكو وكنـت أحدى المدعوات.. وهي تعرف عمتي وابنتها صديقة لها..

* * *